«التكايا والسرايا»... حين تتخادم الصوفية والسياسة لبناء السلطة

منذ 4 ساعات



في تفسير العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والطاعة والاتباع في المجتمع العربي والمشرقي الإسلامي؛ شكل طرح هشام شرابي مفتاحا لتفكيك الكثير من الإشكاليات التي تنتمي لمجتمعات المشرق، ويتمثل طرحه حول مركزية الأب في الأسرة والمجتمع، لتشكيل مشترك جمعي، وتكريس ذهنية أبوية بدءا من الأسرة كأُسٍّ للبناء الاجتماعي؛ وصولا إلى البنى الاجتماعية الأوسع فالمجتمع، ثم ما لبث الأنثروبولوجي عبدالله حمودي أن قدم طرحا رائدا في تفسير أنساق السلطة في كتاب «الشيخ والمريد»، الذي تجاوز فيه شرابي؛ وقدم تحليلا أشمل لتفكيك ديناميات السلطة وتشكلها في المشرق الإسلامي، ودلل على رؤيته بتحليل وتفكيك علاقات الطاعة والتبعية والتحشيد من قبائل المغرب العربي ومتصوفته؛ وصولا إلى أنساق السلطة في أحزابنا الحديثة. وامتاز حمودي بطرح نظرية الشيخ والمريد، التي قد نعتبرها تطويرا لمفهوم الأبوية الأوروبي كتوأم للبطركية ذات الجذر الديني في الثقافة الغربية؛ ثم سحبها على المجتمع العربي؛ فتجاوز الأب واقترح الشيخ كأب أكثر حدة وبعدا

عقديا يفسر مفهوم الهيمنة والاتباع، بما يختلف عن مفهوم الأب تاريخيا في الأسرة أو لدى هشام شرابي.

غير أن الرأسمال الرمزي للشيخ ومريديه، متمثلا بالصوفية الطرقية مثّل طاقة تشغل حيزا دينيا واجتماعيا، وشكّل بنية اجتماعية تمثلا ببنية اجتماعية مقابلة ونموذجية هي القبيلة – علاقة التعاضد بالدم- وشغلت حيزا آخر مواز أو متداخل فتقاطعت معها؛ وتداخل دور الأب -الشيخ القبلي- مع الشيخ الديني؛ مع ضرورة الإقرار بتجاوز الديني للمجال القبلي، واختراق حدوده البينية لدى القبائل. استكمالا لهذا البناء المفهومي ثمة سؤال يطرح نفسه، أين السياسي الذي استثمر في البنيتين وجعلهما حوامل مشروعه؟

في كتابه «التكايا والسرايا عن علاقة المتصوفة بالسلطة عند الترك» يطرح محمد نور النمر ومن منظور سوسيولوجي بناء أكبر، ويقدم ما يمكن أن ينتجه تظافر القبلي مع الديني عند وجود طرف ثالث، هو السياسي، أو المثقف ذو النزوع لبناء سلطة أو بناء دولة جديدة على أنقاض دولة تعيش انهيارا؛ فيؤاخي بينهما منطلقا من المقاربة الخلدونية للعصبية، حيث يبحث الكتاب في « مقاربة وتحليل طبيعة التحالف والتعاون بين رجل الدين/ الصوفي، ورجل السلطة /السياسي، خلال التاريخ التركي الإسلامي منذ السلاجقة حتى اليوم»، والأسباب والآليات والغايات والمقاصد التي سعى الطرفان إلى تحقيقها. ليصل النمر إلى تفسير أسباب وعوامل تشكل دولة الخلافة العثمانية كأكثر الإمبراطوريات حضورا في الوعي العربي والإسلامي الحديث، إذ يعتبر الباحث أن العصبية السلجوقية والتركية ما كانت تحتاج سوى دعوة دينية تؤطرها وفقا للمفهوم الخلدوني؛ حيث مثلت الصوفية دعوة وتجديدا، وبغض النظر عن الموقف منها، فقد شكلت تمايزا يشبه الدعوة الدينية في مجتمع حامل للدين بصورة شعائرية بلا جوهر رادع؛ في دولة مفككة – نهايات العصر العباسي- وبزوغ الدولة السلجوقية. فتم التعاضد والتخادم بين

البنيتين؛ العصبية كإطار قبلي والصوفية كإطار ديني بتوافق وحنكة من السياسي الذي بدأ من نظام الملك. مثلت القبائل قوة الريف والبداوة التي نظر لها بن خلدون في القوة والعصبة والشدة، ومثلت الصوفية الطرقية التي تميز بها مجتمع غير العرب من المسلمين؛ الإطار الديني الذي أنتج تشكيل الدولتين السلجوقية فالإمبراطورية العثمانية.

لا يمثل اعتبار الصوفية الإطار الديني الضام للعصبة والمشذب لها طرحا مستهجنا؛ حيث قال الباحث نايل غرين، إن الصوفية مثلت في المرحلة العثمانية الإسلام حتى أصبح انتقاد الصوفية انتقادا للإسلام ذاته. طرح الباحث إطارا عاما شكل أيديولوجيا الدولة الإسلامية في عهد الخلافة عموما وبناءها؛ منطلقا من اعتبار الفقه كعماد للدولة الأموية، والكلام والفلسفة للعباسية؛ وجاءت الصوفية لتكون إطار ومجالا دينيا وثقافيا للسلاجقة والعثمانيين. وهنا نختلف معه لأن الإطار يأتي بعد تشكل الدولة وناجزا عنها لا سابقا لها من جهة؛ ومن جهة أخرى فإن كانت الصوفية الإطار الديني الذي ضمن تأطُّر العصبية الخلدونية تحت جناحه، فلأن الدين كان صوفيا وبمرحلة النزوع نحو إثبات نفسه؛ هنا نزعة التمايز وإثبات الوجود وجدت فرصتها في تحالف سياسي، ومثال ذلك الدعوة الصوفية التي تحولت إلى شيعية لبناء الدولة الصفوية، حيث حملت نزوع الدولة المبني على التمايز عن المحيط ثم تشكيل الجماعة.

ظهرت الصوفية كرد فعل على فساد الحياة والمجتمع والسلطة، ثم ما لبثت أن تبلورت لتضم العامة من الضعفاء والمقهورين والمحيدين عن الفعل السياسي، واتسعت شعبيتهم وشكلوا مرجعية دينية في مجتمعات مفتتة وتنهبها العصبية، حتى جاءت حنكة الوزير نظام الملك، في تقريب المتصوفة لاستنهاض الأمة وبناء المدارس وتقديم الأخلاق والعلم معا؛ دفعا لإشعار العامة بالقدرة على البناء وصولا إلى تخرج هؤلاء وحملهم لواء الأمة كما بحثه ماجد عرسان الكيلاني، في كتابه «هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس»، تناول نشوء

الدولة السلجوقية وبناء الإمبراطورية العثمانية، وثمة الكثير من المنتج الفكري التركي والعربي، تناول مرحلة معينة وأرخ أكثر مما حلل عوامل النشوء، دون تناول الموضوع من حيث الرؤية الكلية والعامة، وعوامل النشوء وتظافر العامل الديني ممثلا بالصوفية الطرقية مع العصبية القبلية لإنتاج الدولة.

يفتح الكتاب باب أسئلة كثيرة من احتكار المعرفة لدى الكنيسة ونظيرها في المشرق الإسلامي الطرق الصوفية، التجديد والأيديولوجيا لتفسير نزعات التحول، الاستثمار السياسي كما يخرج بمقولات مهمة كمقولة مفصلية مثل «السياسي المريد» وهي من جهة تناظر أطروحة الشيخ والمريد لدى عبدالله حمودي، وصولا إلى حكومة تركيا الحالية «حزب العدالة والتنمية»، ومقولة «الشيخ السياسي» لتفسر تحولات الإسلام في المجتمع التركي ذي المسحة الصوفية وقدرته على عيش تحولات لم تستطع علمانياتنا العربية استيعابها، تثير مقولة «الشيخ السياسي» ضرورة النقاش والتشابك، حيث يختلط دور المسلم البارز اجتماعيا مع مركزه الديني؛ ليكون بارزا سياسيا، أو رائدا لنزوع سياسي غالبا تحت عنوان إصلاحي، أو ثوري أو أصولي، في مرحلة النهوض لتشكيل دولة كما في الدعوة الوهابية، ثم ينفصل الدين عن الحكم فيحيد الحاكم رجل الدين لتكريس ما عرف بظاهرة فقهاء السلطان.

يتحدث الكاتب عن إعادة تعريف العلمانية وعن العلمانية التركية اللينة؛ بصورة تخرجنا من الرؤى التنميطية والتعميمية، خصوصا لدى يسارنا العربي، ويمكن مناقشتها بكثير من الاهتمام في محاولة تلمس محاور التصادم والتوافق والتحول بين الإسلام السياسي والعلمانية الصلبة الراديكالية أو النمطية ـ محاولة النقاش تلك تستهدف تفكيك ونقاش أحد التجارب المشرقية لدولة لها إرث عثماني ديني بحت، مع هوية قومية مع علمانية مفروضة بقرار دستوري يحميه الجيش، مع قومية تحترم وتقدس أتاتورك، محاولة تلمس وضع دولة مشرقية مسلمة تمثل

منطقة تماس وتصادم بين العلمانية والإسلام؛ يستفاد منها عربيا في تطوير رؤى اليسار واليمين الإسلامي أيضا، ويخرجنا في المقابل من قراءات تعميمية على حصر التجربة التركية الجديدة وتقييدها بالإخوانية، ويساعد في فصل مفهوم الإخوانية عن الإسلامية التركية؛ بل يدفعنا للفصل بين الإخوانية السياسية والإسلام السياسي، حيث يتميز الإسلام السياسي التركي بمرونة حافظت على هوية إسلامية مفتوحة، مع تمسك كبير واندفاع حثيث لنيل أكبر ما يمكن أن تنشده دولة مشرقية في الانضمام للاتحاد الأوروبي.

المقولة الثالثة والأخيرة التي خرج بها كاتبنا هي «التكية والسراي» كتعبير عن التخادم والتعاون بين كل منهما لتكوين الدولة، وهو ما يجسد تماما الرؤية الخلدونية للعصبية المكونة للدولة، وإن بدا أن الصوفية حاملة لمشروع سياسي في تاريخ الدولة العثمانية؛ فلأنها باعتقادنا كانت الإطار الجمعي للدين الإسلامي الذي يحمل نزوع الدولة، مع غياب لأنماط تدين أخرى سلفية أو أصولية، ولا يعني سبقا لها على غيرها، كم أن الصوفية قبالة تعدد أنماط التدين الإسلامي وأصوله حديثا، تعد موضوعا للسياسة لا فاعلا سياسيا شأنها شأن القبيلة.

كاتب سوري

كلمات مفتاحية

أحمد الشمام | الدولة العثمانية | الصوفية | عبدالله حمودي






اتركْ تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق

اشترك في قائمتنا البريدية

أدخل البريد الالكتروني *

اشترك

حولنا / About us
أعلن معنا / Advertise with us
أرشيف النسخة المطبوعة

أرشيف PDF

النسخة المطبوعة

سياسة

صحافة

مقالات

تحقيقات

ثقافة

منوعات


adberries